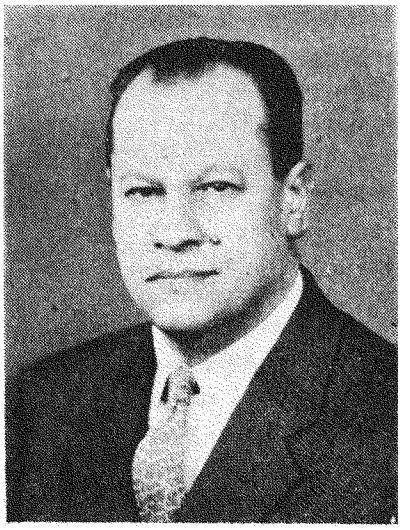

نجيب محفوظ

نظرة نقدية على :

« اللص والكلاب »

بقلم سعيد محمد حسن

ظن كثيرون من القراء ان نجيب محفوظ بعد ان اخرج ثلاثيته قد استهلك الوسط الشعبي والطبقة المتوسطة وانه لن يجد زوايا اخرى جديدة يعرضها خلالها بعد ان استحلبها في « بداية ونهاية » و « زقاق المدق » . وقد تأكد ظنهم عقب اخراجه « اولاد حارتنا » . وبحثوا في هذه القصة عن اشباه السيد عبد الجواد واشباه حميدة وعباس الحلو وحسن الروس ، فلم يجدوا سوى رموز تتحرك وافكار تقف على قدميها. وهنا ايقنوا ان نجيب محفوظ مهدد بالتوقف فهو بعد ان عرض الطبقة المتوسطة في كافة مراحلها من تدهور او ارتفاع قد انتقل بلا ادنى تمهيد الى العالم الرمزي بما به من تجريد وغموض . ولم يتح لكثير من قراء نجيب محفوظ ان يطلعوا على قصة « اولاد حارتنا » فهي بعد ان نشرت مسلسلة في جريدة الاهرام وقف البعض وحال دون اخراجها في كتاب ولا زالت حتى الان مجهولة المصير رغم طول مدة احتجابها .

الا ان نجيب محفوظ عاد بقصته الطويلة « اللص والكلاب » ليطرق بابا جديدا لم يطرقه من قبل . فهذه القصة لم تزدحم بالشخصيات كما في قصصه الاولى وخاصة ثلاثيته ولم تزدحم بالرموز والافكار كقصة « اولاد حارتنا » بل جاءت مجرد شريحة حية مقتطفة من المجتمع الذي نعيش فيه .

والحق يقال ان نجيب محفوظ في قصته هذه لم يتنازل عن كثير من ارائه السالفة ، وان كان قد وضعها هذه المرة تحت المجهر وضخمها لدرجة كبيرة وناقشها بلا مواربة ولا احراج . فهو يقسم المجتمع الى ثلاث فئات (١) : الفئة الاولى هي فئة اللصوص والفئة الثانية هي فئة الكلاب والثالثة هي فئة المتمردين . غير ان الكاتب ـ رغم عرضه لنماذج من كل من هذه الفئات ـ لايرسم خطا واضحا بين كل منها ، بل اننا لنجد احيانا ان الشخصية تتارجح بين الاثنين . وليس معنى هذا اننا نؤمن بالحدود الفاصلة القاطعة بين كل فئة واخرى . او اننا نحرم على ابناء فئة معينة الانتقال الى فئة اخرى . وليس هذا اننا لا نؤمن بالنوازع النفسية التي تجعل من الفرد ميالا الى الارتفاع بمستوى معيشته الى الفئة الاعلى . ولكننا لانعرف من هم اللصوص تماما ومن هم الكلاب تماما . فالكل في هذه القصة يقف ضد المتمرد باستثناء المراة « نور » التي تحبه والمعلم « طرزان » الذي يسهل له العمل . اما فيما عدا ذلك فالكل في جانب وهو وحده في جانب اخر . وقد اختار الكاتب زاوية خروجه من السجن ليبدأ قصته . ويضع في طريقه كل اسباب التمرد ، فزوجته التي تزوجها عن حب ملك عليه روحه قد تزوجت بمن هو ادنى منه . وكانت الافكار التي تراوده عقب خروجه من السجن لاتخرج عن « عليش » الذي تزوج بام ابنته سناء . ويتطرق تفكيره الى ابنته التي تعيش تحت سقف رجل غريب ، وتصطدم اذننا بكلمة الكلب لاول مرة « انسيت ياعليش كيف كنت تتمسح في ساقي كالكلب ؟ الم اعلمك الوقوف على قدمين ؟ ومن الذي جعل من جامع الاعقاب رجلا ؟ »

وهنا نرى عليش لاول مرة وهو ليس بمفرده فمن حوله قطيع من ماسحي الجوخ ، ويصر سعيد مهران على اخذ ابنته الا انهم يخرمونه منها وتنكره البنت الصغيرة نفسها وينزل سعيد من منزل عليش وهو يدبر في نفسه امرا للقضاء على هؤلاء الكلاب . وذهب الى بيت الشيخ علي الجنيدي وهو عجوز جاوز الثمانين . اعتاد ان يذهب اليه فيما مضى مع والده الشيخ مهران كلما اصابه ضيق او كرب ويدور بينهما حوار يظهر لنا شخصية الشيخ الطيبة المؤمنة ويدل على مبلغ سعة صدر الشيخ ومبلغ بياض سريرته . وهنا يتذكر سعيد « رؤوف علوان » المثل الاعلى له . المحرر بجريدة « الزهرة » ويتساءل عن وحي ومنبع فكر رؤوف علوان ويقرأ ماكتبه « ملاحظات عن موضة السيدات ، مكبرات الصوت ، رد على شكوى زوجة مجهولة » . اهذا كل مابقي من مثله الاعلى ؟ اهذا كل مابقي من رؤوف علوان الذي يقول عنه « انت لاتقل عظمة عن الشيخ علي ، انت اهم مالدي في هذه الحياة التي لا امان لها » . ويذهب اليه فيمنزله ويعجب لبحبوحة العيش التي يعيش فيها ويتساءل « حتى اللصوص لايحلمون بذلك » لانه يعتقد ان اللصوصية وحدها هي اقصر الطرق للنجاح بل انها هي الطريق الوحيد للنجاح في مجتمع معظم افراده اما من اللصوص او الكلاب .

ويستمر في تساؤله « رؤوف علوان انت لغز وعلى اللغز ان يتكلم، اليس عجبا ان يكون علوان على وزن مهران ؟! وان يمتلك عليش تعب عمري كه بلعبة الكلاب ؟ » وهذا مايدهشه حقا . انهم لصوص مثله لكنهم مع ذلك مختلفون في المركز والوضع الاجتماعي والقيمة الادبية . هو يقبض عليه ويعتبر لصا ويدخل السجن والاخر لايعتبر لصا ويعيش حرا في وسط نظيف . ويقول له رؤوف علوان : « ياعم سعيد ، زال تماما جميع ماكان ينغص علينا صفو الحياة » . ويعلم سعيد مهران انه يقصد فقره هو . لايقصد الفقر الذي يعيش فيه بقية الناس .وينسى رؤوف علوان كلماته السابقة التي لقنها له . وينسى المباديء التي بثها في روحه والاهداف التي رسمها له . وبعد ان كان يقول له وهو مازال فقيرا يناضل في سبيل الفن عقب سرقته لطالب من بيت الطلبة « لاتخف الحق اني اعتبر هذه السرقة عملا مشروعا ! » ولكنه استدرك محترسا « ولكنك ستجد البوليس لك بالمرصاد » كما اضاف ساخرا « ولن يتسامح

---

(١) استخدمنا كلمة « فئات » بدلا من الطبقات حتى لاينصرف الذهن الى مدلول كلمة الطبقات ومن ثم : الى التطاحن الطبقي . وان كلمة فئات لتعني التطاحن في الطبقة الواحدة .

القاضي معك مهما تكن بواعثك مقنعة فهو ايضا يدافع عن نفسه » ثم تساءل بالسخرية نفسها « اليس عدلا ان مايؤخذ بالسرقة فبالسرقة يجب ان يسترد » . اليس هذا كلام رؤوف علوان ايام ان كان فقيرا . فماذا يقول له الان ؟ انه يتساءل كالمنزعج « ارجع الى اللصوصية » ويرد عليه سعيد مهران : « انها مخزية جدا كما تعلم ...» وكما يعلم حقا . انه من كبار الاغنياء الان وقد انقلبت العلاقة بينهما فاحدهما مازال لصا اما الاخر فقد اصبح غنيا . وبعد ان كانت العلاقة علاقة التقاء افكار في يوم ما اصبحت العلاقة علاقة تطاحن وريبة . واخيرا يختتم سعيد كلامه : « ماأجمل ان ينصحنا الاغنياء بالفقر » .

وهنا يخرج علوان عشرة جنيهات من محفظته ويعطيها لسعيد دون مزيد ولا بعده بأي شيء لتحسين مستقبله المنهار مع علمه بانه لايجيد شيئا في الحياة سوى اللصوصية . ويخرج سعيد مهران من الفيللا وهو تائه شارد . ويتساءل « تخلقن ثم ترتد ، تغير بكل بساطة فكرك بعد ان تجسد في شخص ما كي اجد نفسي ضائعا بلا اصل وبلا قيمة وبلا امل »(٢) اذن ما العمل ؟ ما العمل في مجتمع يحارب بكل قيمة اللصوصية ثم يعيش عليها ؟ مجتمع يتكون من اللصوص والكلاب . اذن لا فرصة امامه سوى التمرد على الاوضاع . وهو يدرك نهاية هذا التمرد بل ويقول في نفسه « لاتمكن عشماوي من ان يسالك « ماذا تطلب » وعلى الحكومة ان تجود بهذا السؤال في مناسبة افضل . » وهنا يدرك سعيد مهران ان لا سبيل امامه سوى القتل والاغتيال . فلا حياة له في هذا المجتمع ولا حياة له بين هؤلاء الناس . لاشيء يستطيع ان ينقذه سوى المسدس. والمسدس هنا رمز القتل والاغتيال . ويقول : « بهذا المسدس استطيع ان اصنع اشياء جميلة على شرط الا يعاكسني القدر . وبه ايضا استطيع ان اوقظ النيام فهم اصل البلايا . هم خلقوا نبوية وعليش ورؤوف علوان » ويظهر تمرده في افكاره فهو يقول « لنور » التي آوته في منزلها عن السيارة التي سرقها واغتال بها احد الابرياء « قضت المحكمة بان اتركها رغم حاجتي اليها ، سيجدونها ويردونها الى صاحبها كما ينبغي لحكومة تتحيز لبعض اللصوص دون البعض ! » وعندما تصف له نور القرافة ، يعلل كلامها بقوله : لذلك فهواؤها غير فاسد .

لقد فشل سعيد مهران في سطوه على منزل رؤوف علوان وفشل في اغتيال عليش ونبوية ، وفكر في ان يتنكر وفي ان يطمس شخصيته الحقيقية فلم يستطع سوى التنكر في زي احد الضباط حتى يتمكن من العمل دون الخوف من احد ودون ان يشك فيه احد . وتضيق به الظروف ولا يعرف اين يذهب وخاصة وان كثيرا من المريدين يؤمون منزل الشيخ علي الجنيدي . ويذهب الى نور التي تحبه وتقول له ، « انت تقول هذا ، اكاد اصدق احيانا ان الرحمة قد تعرف قلوب رجال البوليس قبل ان تعرف قلبك » ان « نور » لاتكاد تعرف مثالا للقسوة والظلم سوى رجال البوليس الذين تحول عملهم من حماية الابرياء الى حماية اللصوص والكلاب وهنا يدلي طرزان برأي هام : هو اعجاب طبقة الناس البسطاء بهذا المتمرد . بل واعجابهم به حتى ان مقالات السيد رؤوف علوان لم تترك اي اثر في نفوس هؤلاء الناس اللهم سوى الاعجاب رغم انها كانت تستثير غضبتهم ونقمتهم على هذا المتمرد الذي ظهر اخيرا(٣)

ويقول طرزان لسعيد مهران :

ـ لاتقم في مكان واحد اكثر من ليلة ..

وقال المهرب :

ـ اهرب الى الصعيد

فتساءل سعيد :

ـ لا احد لي في الصعيد ..

فعاد المهرب يقول :

ـ كثيرون تحدثوا عنك امامي باعجاب .

فتساءل طرزان بحنق :

ـ والبوليس هل يعجب به ايضا .

وهنا يقول صبي القهوة وهو يعبر عن آراء الناس البسطاء الذين يتركز فيهم الاعجاب بمهران :

ـ اي ضرر في سرقة الاغنياء !

وهنا يقول سعيد وهو يدرك تماما الوضع الذي هو فيه :

ـ الجرائد لسانها اطول من حبل المشنقة ، وماذا ينفعك حب الناس اذا ابغضك البوليس . كما يتساءل سعيد ايضا بالنسبة لرؤوف علوان:

ـ الا تجد الجرائد موضوعا غير سعيد مهران .

ويعجب بالدور الذي يقوم به رءوف علوان ويتذكر الدور الذي كان يقوم به « هكذا كنت يا رؤوف ، وبفضلك وحدك الحقني ابي بالمدرسة، وعند احراز النجاح ضحكت ضحكة عظيمة ولوالدي قلت « ارأيت ؟ .. لم تكن تريد ان تعلمه ، انظر الى عينيه ، سيكون ممن يقوضون الاركان ، وعلمتني حب الكتاب وناقشتني كاني ند لله وكنت بين المستمعين لك عند النخلة التي نبتت عند جذورها قصة حبي وكان الزمان ممن يستمعون لك . الشعب ... السرقة . النار المقدسة . الثورة .. الجوع ... العدالة المذهلة . ويوم قلت لي في حزن « سرقات فردية لاقيمة لها ، لابد من تنظيم » وتأتي نور وتقول لسعيد مهران « انهم يتحدثون عنك كانك عنترة ولكنهم لايدرون عذابنا ... »

ويذهب الى منزل رؤوف علوان وفي نيته اغتياله . ويقول في نفسه « جاء وقت الحساب ، ولو كان الحكم بيننا غير الشرطة لضمنت تأديبك امام الناس جميعا . الناس عدا اللصوص الحقيقيين ، وذلك مايعزيني عن الضياع الابدي ، انا روحك التي ضحيت بها ولكن ينقصني التنظيم على حد تعبيرك ، وانا افهم اليوم كثيرا مما اغلق على فهمه من كلماتك القديمة ومأساتي الحقيقية انني رغم تأييد اللايين اجدني ملقى في وحدة مظلمة بلا نصير ، ضياع غير معقول ولن تزيل رصاصة عنه عدم معقوليته ولكنها ستكون احتجاجا داميا مناسبا على اي حال ، كي يطمئن الاحياء والاموات ولا يفقدوا اخر امل » .

وهنا يكون ادراك سعيد مهران بالدور الذي يقوم به قد وضح تماما . وقد قطع بيديه الافكار القوية التي تربطه برؤوف علوان ويبدأ يعد نفسه للقيام بدور المتمرد . ويتضح ذلك بقوله : « الرصاصة التي تقتل رؤوف علوان تقتل في الوقت نفسه العبث . والدنيا بلا اخلاق ككون بلا جاذبية . ولست اطمع في اكثر من ان اموت موتا له معنى . لقد وضع حياته في مقابل اغتيال مكمن الشر وموضع الفساد . لقد وضع معنى موته في مقابل اغتيال رؤوف علوان . ويتخيل سعيد مهران ويستبق الحوادث في انه نجح في اغتيال رؤوف علوان وانهم قد قبضوا عليه . وانه يحاكم ويستعد في الدفاع عن نفسه فيقول للقضاة « لست كغيري ممن وقفوا قبلي في هذا القفص . اذ يجب ان يكون للثقافة عندكم اعتبار خاص . والواقع انه لا فرق بيني وبينكم الا انني داخل القفص وانتم خارجه ، وهو فرق عرض لا اهمية له البتة ، اما المضحك حقا فهو ان استاذي الخط ليس الا وغدا خائنا ، ويحق لكم العجب، ولكنه يحدث ان يكون السلك الموصل للكهرباء قذرا ملطخا بافرازات الذباب .. »

ويستمر في كلامه « انت واثق مما تقول . وفضلا عن ذلك فهم يؤمنون في قرارة انفسهم بأن مهنتك مشروعة ، مهنة السادة في كل زمان ومكان وان القيم الزائفة حقا فهي التي تقدر حياتك بالملاليم وموتك بألف جنيه » .

---

(٢) نتذكر هنا موقفا مشابها في « الاخوة كرامازوف » والعلاقة الفكرية بين ايفان وسمردياكوف . ونعلم ان سمردياكوف كان المحرك الالي لافكار ايفان . وانتهت الرواية بافتيال الاب وثورة ايفان على هذا المحرك الالي . وبعد ان يدرك سمردياكوف ان مثله الاعلى لايرتبط به وان العلاقة بينه وبين محركه قد انقطعت لايجد مخرجا سوى الانتحار .

(٣) قال البعض ان نجيب محفوظ ترسم في قصته هذه قصة السفاح المصري الذي ظهر في العام الماضي باسم محمود سليمان والذي شغل الصحافة مدة طويلة والذي اصبح في تلك الفترة اسطورة على كل لسان وانتهت حياته بانتحاره في جبل حلوان . وفي الحقيقة ان هناك تشابها بين مهران وسليمان الا اننا لايمكننا التأكد من هذا الشبه . وكذلك الدور الذي قامت به جريدة « الاخبار » والاعجاب الذي كان يظهر بين صفوف بعض الناس ازاء هذا المتمرد .

واخيرا يفشل في اغتيال رؤوف علوان . وهنا تضيق الحلقة على رقبة سعيد مهران ولا يستطيع ان يلجأ لاحد سوى الشيخ علي الجنيدي لان منزل نور اصبح مهددا والجبل اصبح مهددا وحياته بذلك اصبحت مهددة .

سبق ان قلنا ان هناك خيطا رفيعا يفصل بينهما وانه من السهل الانتقال بين الفئتين . وصفة الكلاب لا تلصق وجدها برجال البوليس او المجرمين او رؤوف علوان . ويتذكر في هذه الظروف المأساة التي وقع فيها سعيد مع احد الاطباء الكلاب الذين اثاروا نقمته على الجنس البشري باكمله ويتذكر يوم ان كانت امه مريضة « ودلوه على الطبيب الشهير وهو خارج من غرفة فجرى اليه بجلبابه وصندله صائحا « امي .. الدم .. » فتفحصه الرجل بعينين زجاجيتين مستنكرا . ومد بصره الى حيث استلقت الام على مقعد وثير كالسخام . وثمة ممرضة اجنبية كانت تراقب ما يجري عن كثب فبازاء ذلك اكتفى بالاختفاء صامتا . ورطنت الممرضة بلغة لم يفهمها ولكنه شعر بأنها تشاركه بعض مأساته . وغضب غضبة رجل رغم حداثة سنه . صاح محتجا لاعنا . ورمى بمقعد الى الارض فاحدث دويا وتطايرت قشرة مسنده . وجاء خدم كثيرون . وما لبث ان وجد نفسه وامه وحيدين في الطريق المسقوف بالاغصان. وعقب شهر من هذا الحادث ماتت الام » . كما يتذكر الحديث الذي دار بينه وبين « نور » وقد عادت دامعة بالليل . وكان يرى دمعها لاول مرة فتاثر وهو يسال :

ـ اذن ما السبب .
ـ ضربوني !
ـ البوليس ؟
ـ شبان لعلهم طلبة وانا اطالبهم بالحساب .
انحرف جانب فيه رثاء وتمتم :
ـ اغسلي وجهك واشربي قليلا من الماء .
ـ فيما بعد ، انا تعبانة جدا .
فتمتم غاضبا :
ـ الكلاب .

انه لا يستطيع ان يعلق باكثر من هذا على ما حدث . ان كلمة الكلاب وهي تخرج من فمه كالقذيفة لتعبر تعبيرا واضحا عن نقمته. ومن هنا نعرف ان صفة الكلاف تشمل بعض افراد المجتمع الذين تعودنا ان ننظر اليهم نظرة سليمة . ومن هنا يتضح ان اللصوص اقلية اما الكلاب فهم الاكثرية وهو يدافع عن الكلاب الحقيقية ويسم بالدناءة كل الكلاب الادمية . ففي اثناء حديثه مع نور يقول : اكثرية شعبنا لا تخاف اللصوص ولا تكرههم ولكنهم بالفطرة يكرهون الكلاب ، فقالت باسمة، وهي تلمق اناملها :

ـ انا احب الكلاب ...

فلم يزد على ان قال :

ـ لا اعني هؤلاء .

وفي آخر لحظات حياته ، لا يتفوه الا بكلمة واحدة والرصاص ينهال حوله فيمزق ازيزه اذنيه .

ـ يا كلاب .

وهذه هي نهاية المتمرد الذي اختاره الكاتب ليعبر عن افكاره. ولم يشأ الكاتب ان يختار ثائرا . فشتان ما بين الثورة والتمرد . ان التمرد عصيان اعمى للاوضاع الموجودة ، اما الثورة فهي العصيان الواعي المنظم الذي ينتقل بحذر وينقض وهو متأكد تماما من نتيجة ضربته . وشتان بين نهاية الثائر ونهاية المتمرد . ان التمرد لا يعني سوى القاء حجر على صفحة المياه ، ويذهب كل اثرها بعد مرور فترة من الزمن . اما الثائر فهو الذي يهز البنيان من اساسه . ويدك صرح الظلم من اسفله. ويترك الاثر واضحا حتى بعد ان ينتهي . وفي الحقيقة ان طريقة عرض هذه الشرعية من المجتمع وطريقة ترتيب الحوادث بهذا الشكل لا يسمح بقيام الثائر ولا تساعده الظروف على ارساء قواعده . كما ان تقسيم المؤلف

اعمق الدراسات حول

الفلسفة والادب

مع نماذج ادبية مختلفة

تجدونها في عدد

« الاداب » الممتاز

الذي يصدر في مطلع آذار القادم

للمجتمع بهذا الشكل السابق لم يعطه اي فرصة للتقدم او التحسن. فليس في كل هذه القصة سوى شخصية مضيئة واحدة وهي شخصية الشيخ علي الجنيدي وهي شخصية سلبية الى ابعد المدى . ورغم قدره تاثيرها على سعيد مهران الا ان ذلك لا يأتي بنتيجة ، اللهم الا التوبة المؤقتة ثم الاستعداد للاغتيال والقتل . وربما قصد الكاتب بذلك الى ضعف الشعور الديني في المجتمع وضعف الرقابة الدينية الذاتية في الافراد . ولا شك ان هناك فئة رابعة ألا وهم اولئك الناس الابرياء البسطاء الذين يكونون القطاع الاكبر من هذا المجتمع .

وقد مهد نجيب محفوظ لقصته بوسائل تكنيكية بارعة . فهو يمهد اولا لقصته بالجهم والعبوس اللذين يرتسمان في قلب سعيد مهران «عندما اقطع هذا الشارع ذا البواكي العابسة ، طريق الملاهي البائدة الصاعدة الى غير رفعة ، اشهد اني اكرهك ... والقدم تعبر من آن لآن نقرة مستقرة في الطوار كالمكيدة ، وضجيج عجلات الترام يكرر كالسب ، ونداءات شتى تختلط كأنما تنبعث من نفايات الخضر ، اشهد اني اكرهك » .

كما يلجأ الكاتب مرة اخرى الى ميكانيزم الحلم ليعبر عن التوتر والقلق والخوف المبهم الذي يسيطر على وجدان سعيد مهران وهو مستلق على الفراش . فقد حلم بأنه يجلد في السجن رغم حسن سلوكه (٤).

كما يلجأ الكاتب مرة اخرى الى فقرة غير مرقمة تستمر لعدة صفحات وهو هنا يبلغ الذروة في العمل القصصي اذ ان الجمل تنساب رقيقة هينة دون ان يوقفها سيل الافكار المتنافرة وهي لا تسرع ولا تبطىء بل تسير سير الجدول الهادىء حتى يفيق سعيد مهران (٥) .

وتبدأ هذه الجملة هكذا « والبقال تقع دكانه امام بيت الطلبة وتجيء نبوية حاملة ... وينتهي عند قوله « ويشوه البوليس سيرتك فينقطع ما بينك وبين سناء الى الابد حتى حبك لن تدري عن صدقه شيئا كأنه رصاصة طائشة كذلك » .

ولا ينسى الكاتب في تلك اللحظات الجهمة ان يخفف من وقعها على نفس القارىء فيلقي بالنكات الحقيقية هنا وهناك . الا ان هذه الابتسامات تختفي خلف جدية الحوادث وعبوسها وقلما يفطن اليها القارىء .

---

(٤) يذكرنا هذا الحلم بحلم فرانز كافكا في روايته « القلعة ».

(٥) تذكرنا هذه الجملة الطويلة بجملة جيمس جويس في روايته اديس وهي الجملة التي استمرت حوالي الاربعين صفحة وهي تسير تبعا لجريان الشعور .

القاهرة — سعيد محمد حسن